

## إشكالية النَّصِّ و الخطاب من الوجهتين العربية والغربية

الدكتور معمر عفاص

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف - الجزائر

ملخص:

النَّصُّ والخطاب من المصطلحات التي تجاذبتها مجموعات لا حصر من المدارس اللغوية المهمة يبحث ما يدور في مباحث موضوع التواصل اللغوي، فلا يمكن الانطواء على الذات و التحكيم لمجموعة دون أخرى إلا بالوقوف الجدي، الصارم الذي يبرهن على النوعية والفقہ المنير المقدم في إطار تعليل ما أمكن من الطروحات النابعة عن قصد والتي لا تخرج عن مضامين العملية التواصلية في إطارها الانساني، الشيء الذي أبانت عنه عديد الرؤى، التي لقفناها من خلال تراثنا وتراث الغير، كما أنَّ بحث المختلف بين المدرستين له شأنه الواضح في تقديم، الموضوع المطروح بشكل يبعث إلى تحقيق صدق المزبة المرجوة من الخطاب.

الكلمات المفتاحية: النص، الخطاب، التآلف، الجملة، المؤلف، النطق.

1. مقدمة

لا يمكن أن نتعاطى بسهولة مع مصطلح يعدّ حالياً من بين الإشكالات، التي لا يمكن لأي باحث في أي حقل معرفي أن يهمل حيثياته، لما له من علاقة وطيدة في ربط المقاصد القبلية بتلك التي يصبو إليها المؤلف، فالنص كيان يحمل كمّا هاماً من الجمل التي لا تعدو أن تقدم له خدمة حصر بعيدة وتقريبه من خلال التآلف المستفيض بينهما؛ لأنّ الجملة لا موقع لحياتها إلا إذا احتواها نظامه المستلزم لمقاصد، كما أنّ نظامها المصغّر لا يستهان به في تحريك حركيته.

من هذا المنظور، أريد أن أطرق باب البحث في حيثيات النَّصِّ من ناحية المفهوم المؤثر التي ألهم أهل اللغة مزبة فتح مجال تقدير بعض ما جاءت به الآراء المختلفة في تبينه وتوسيع الرؤى فيما يؤديه من مزايا كبرى تخدم مقاصد الناطقين على اختلاف مشاربهم.

ممّا جعلنا ملزمين على ضرورة الإجابة عن إشكال جوهري يتعلّق بصفة مباشرة بطرح مشكلة النَّصِّ والخطاب في إطار مختلف الرؤى التي تناولتهما، حيث رأينا أنّه لا بد من الإجابة على الطرح التالي: كيف تناول مفهوم النَّصِّ والخطاب كل من العرب والغرب؟ وهل هناك علاقات وجهية بينهما من حيث التحديد المبدئي ومن حيث الفاعلية التواصلية باعتبار أنّ العربية ليست هي اللغات الغربية لما تحتويه من اختلافات على مستوى كل المستويات والتي بدورها تشكل جميع محاور العملية التواصلية (الخطاب أو النص)؟

أما الأساس الذي شدّدنا لمعالجة هذا الموضوع هو محاولة إبراز تلك المحاورات التجاورية الموجودة بين النص و الخطاب، أيضاً الأبعاد الجمّة التي تقتضيها العملية التواصلية في إطار تركيب الجمل عبر نصوص وخطابات لترقى في آخر المطار إلى محاصرة المبني في كل متعامد، لا يمكن أن يخرج عن عملية الأداء الفعلي لما في النفس البشرية من مغالقة، لولا اللغة ما كان للأسماع نصيب فيها.

لذلك كان لزاما علينا أن نلج باب البحث من خلال طرح الموضوع من الوجهة المرجعية لأقف على مختلف المفاهيم التي حاولت حصر مفهومه، ثمّ الحديث عن تلك العلاقات التي تربطه بموضوعات أخرى ذات أهمية في عملية التواصل كالبلاغة مثلا.

## 2. المفهوم اللغوي للنص

1,2 لغة:

بالنظر لما للمفهوم اللغوي من فائدة في تحصيل المصطلح المقصود لتغطية المادة العلمية، وبغية تفكيك ما يحصل من تقارب يفضي أحيانا إلى بعض اللبس الذي من شأنه أن يبعث إلى عدم التحكم في المفاهيم لقرب معاني مصادرها اللغوية، دعت المنهجية إلى ضرورة الوقوف على مفهوم النص في وضعيه اللغوي والاصطلاحي، ولعلّ بالرّجوع إلى المعاجم العربية نستطيع أن نُجلي نظرة عامة، تتبيّن من خلالها المفاهيم المختلفة، حيث وردت في لسان العرب لابن منظور «مادة "نص" :النص :رفعك الشيء كذلك، الإظهار وجعل بعض الشيء فوق بعضه، وبلوغ الشيء أقصاه ومنتهاه، والتّحرك والتعيين على شيء ما، والتوقيف<sup>1</sup>

كما ورد في الكشاف للإمام الزمخشري النص بمعنى الرّفْع والانتصاب وما عدا ذلك فقد عده معنى مجازي<sup>2</sup>

2,2 اصطلاحا:

النص في معجم المصطلحات في اللغة والأدب لمجدي وهبة وكامل المهندس «الكلمات المضبوطة أو المخطوطة التي يتألف منها الأثر الأدبي، اقتباس أجزاء من الكتب المقدمة والتعليق عليها في الوعظ، الاقتباس الذي يعتبر نقطة انطلاق لبحث أو خطبه.

النص في المعجم الفرنسي Texte لفظة مُنحدرة من مادة Textus اللاتينية التي تدلّ على النسيج والنسج، أيضا تطلق كلمة Texte على الكتاب المقدس أو كتاب القدا، والنص منظومة عناصر من اللغة أو العلاقات، وهي تشكل مادة مكتوبة أو إنتاجا شفويا أو كتابيا<sup>3</sup>، الملاحظ من مادة Texte أنّ معناها الأول يطلق على النسيج العادي ثم انتقل إلى النص؛ لأنّ النصّ نسيج من الألفاظ يرتبط بعضها ببعض، وهذا الرّبط هو كما خيوط الأنسجة تتألف فيما بينها لتشكّل الكلّ بطرق مختلفة متناسقة مشكّلة كلاً واحداً.

يحاول بعض الباحثين التّقريب بين أصل كلمة النصّ في اللغة العربية وبعض اللغات الأخرى كالفرنسية texte و الإسبانية texto و الروسية tekta والأصل لهذه الكلمة في كل هذه اللغات هي textux والتي ترجع في الأصل إلى التعبير عن النسج، حيث ذهب محمد الهادي الطرابلسي إلى أنّ معنى النسيج يتوفر في المصطلح العجمي المقابل لمصطلح نصّ texte على أنّ هذا المعنى ليس غريبا عن تصوّر العرب للنصّ، فقد تبين أنّ الكلام عند العرب، يكون نصّاً، إذا كان نسيجا والنسيج في بعض الحيات يلتقيان ففي اللسان لابن منظور تلتقي مادة

النص والنسيج (ن.ص.ص) (ن.س.ج) "يعني النص جعل المتاع بعضه على بعض و النسيج ضم الشيء إلى الشيء فالأول تركيب والثاني ضم، والتركيب والضم واحد"<sup>4</sup>.

ومن بين التعاريف الكثيرة التي وردت عند الغربيين بخصوص النص نجد جوليا كريستيفا J.Kristiva التي تعرفه بأنه «جهاز عبر لساني يعيد توزيع نظام اللسان بواسطة الربط بين كلام تواصلية يهدف إلى الإخبار المباشر وبين أنماط عديدة من الملاحظات السابقة عليه أو المتزامنة معه، فالنص إذن إنتاجية نوهو ما يعني:

أ- أن العلاقة باللسان الذي يتموقع داخله هي علاقة إعادة توزيع (صادمة بناءة)؛ ولذلك فهو قابل للتناول عبر المقولات المنطقية لا عبر المقولات اللسانية الخالصة.

ب- أنه ترحال للنصوص وتداخل نصي، ففي فضاء نص معين تتقاطع وتتناهي ملحوظات عديدة مقتطفة من نصوص أخرى"<sup>5</sup>

أما كلاوس برينكر k.brinker فيذهب إلى أنه «تتابع متماسك من علامات لغوية، أو مركبات من علامات لغوية لا تدخل تحت أية وحدة لغوية أخرى أشمل»<sup>6</sup>

لقد اقترح برينكر في نهاية عرضه للاتجاهين مفهومًا يجمع ويدمج الجانبين اللغوي البنيوي والتواصلية السياقية، فيعرفه على أنه: «وحدة لغوية تواصلية في الوقت نفسه»<sup>7</sup>.

كما يذهب هارفيج إلى القول بأن النص: «ترابط مستمر للاستدلالات السنتجميمية التي تظهر الترابط النحوي في النص»<sup>8</sup>.

ولقد تنبّه قدماءنا إلى علاقة المماثلة التي تنعقد بين النص والنسيج، حيث مثلوا القصيدة بنسج من الزرابي تظهر فيه كل ألوان التصوير بالتناغم والتناسق بين محتويات رسومها، الغاية من ذلك بلوغ مقصد الصناعة قال الجاحظ: «إنما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير»<sup>9</sup>.

إن تمثيل النص بنسج الزرابي، يستدعي التنبّه لما تحويه أنواعها المشكّلة من ناسجها، فالزربية تعتبر نصا قائما بذاته، لما تحويه من علامات تتقارب والنص المركّب تركيبا لغويا، فالفكرة التي يمتلكها الكاتب هي نفسها التي يمتلكها الناسج، فالقصد بينها يقترن في موضوع تأليف الجزئيات التي تعتبر جمالا تسير وفق خيوط تتحكم فيها آليات ترتبط بالسياق الذي نجده عند الناسج مقترن بمقايضة تأليفه بالزمن (كنسج يخص الصيف و نسج يخص الشتاء)، كما أن تنوع الألوان والتصوير والتناسق بين الرسوم وما تدل عليه، هو القصد من إبراز ما يخفي صاحب الصناعة، فالألوان تحيل إلى بعضها من وجهة التناغم، كما تكرر بعضها يهدف إلى تأكيد بروز ما يدور في ذهن الناسج، أيضا حذف بعضها دليل على إبراز لون طاغ على الزربية، كما أن الناسج قد يحيل لون بدأ به عملية النسج إلى لون يقترب منه في آخر التشكيل للمادة المنسوجة، هذه القواعد التي تنبني عليها صناعة الناسج مثلها التي تتحكم في ناسج النص، فلكلاهما نص تتحقق فيهما علامات التناسق والانسجام عن طريق استخدام الآليات المتطابقة بينهما (التكرار، الحذف، الاستبدال، الإحالة، الوصل والفصل....)

هذا ما ذهب إليه ابن طباطبا حين يقول: « إن الشاعر الحذق كالنساج الحاذق الذي يفوق وشيه بأحسن التفويق، ويسديه، وينيره ولا يهلهل شيئاً منه فيشينه. وكالنقاش الرقيق الذي يصنع الأصابع في أحسن تقاسيم نقشه ويشيع كل صيغ منها حتى يتضاعف حسنه في العيان»<sup>10</sup>

كما يتوجّه عبد القاهر الجرجاني إلى أنّه لا يمكن الحديث عن فن من الفنون دون التنبّه إلى تلك الخواص التي تؤلّف الأجزاء لحصول الكلّ المرجو يقول: «واعلم أن مثل واضع الكلام مثل من يأخذ من الذهب أو الفضة فيذيب بعضها في بعض، حتى تصير قطعة واحدة»<sup>11</sup>، إن الصنعة لا تكتمل من الوهلة الأولى إذا نظرنا إلى جزئيات المادة التي لولا انعقاد تأليفها وتماسكها ما اكتملت الصورة النهائية المرادة موضوع التأليف، فالكلم سبيل انتظامها يكون على هذه الشاكلة التي من شأنها أن تحرك الأسماء والأفعال والحروف في متعة نسيج يطلق عليه في النهاية نظم المقاصد المستوحاة من طبع صاحب الصناعة يقول: « فكما لا تكون الفضة أو الذهب خاتماً أو سواراً أو غيرها من أصناف الحلي بأنفسهما ولكن بما يحدث فيهما من الصورة، كذلك لا تكون الكلم المفردة التي هي أسماء وأفعال وحروف شعراً من غير أن يحدث فيها النظم»<sup>12</sup>

إنّ جودة النسيج لا تكون الوهلة الأولى فيها –أي بداية الصنعة- دليل على جودتها أو رداءتها، بل مصير الجزئيات يكون بتعاضدها وتمركزها في الأشكال المخبئة داخل الصورة ذاتها، ما ينطبق على تشكيل الكلام و تأليفه المتنوع، فلا يمكن أن نحصل المعاني إذا كان انبثاؤها لا يخدم تلك الصورة المرسومة قبليا في ذهن صاحب الصناعة أو مؤلف الكلام، إن انتظام الأشكال والألفاظ عنصران لا يمكن إغفالهما في تحقيق مقاصد ما أنتج. يقول: « كما أن محالاً إذا أنت أردت النظر في صوغ الخاتم وفي جودة العمل ورداءته، أن تنظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة، كما الذهب الذي وقع فيه العمل وتلك الصنعة، كذلك محال إذا أردت أن تعرف مكان الفضل والمزية في الكلام، أن تنظر في مجرد معناه...»<sup>13</sup>

ومما ورد في الدراسات العربية الحديثة بخصوص النصّ يقول عبد الرحمان طه بأنّه «كلّ بناء يتركّب من عدد من الجمل السليمة مرتبطة فيما بينها بعدد من العلاقات»<sup>14</sup>. لقد اعتبر هذا التعريف من أهم التعريفات الحديثة التي تعاملت مع مصطلح نص بهذه الصيغة؛ لأنّ التعريف أنبى على أساس منطقي، كما أنّ صاحبه أظهر فيه بأنّه عبارة عن جمل مترابطة متعلقة تتعالق داخل بناء تربطها علاقات متميّزة.

أيضا ذهب نور الدين السد إلى القول بأنّه: «مجموعة جمل فقط، لأنّ النصّ يمكن أن يكون منطوقا أو مكتوبا نثرا أو شعرا، حوارا أو منولوجا، يمكن أن يكون أي شيء من مثل واحد حتى مسرحية بأكملها من نداء استغاثة حتى مجموعة مناقشة الحاصلة طوال يوم في لقاء هيئة»<sup>15</sup>.

أما مفهومه عند عبد المالك مرتاض، فإنّه من ناحية الشكل لا يحدد النصّ من خلال كمّه أي من خلال الجملة أو مجموعة الجمل داخل النصّ، فهو يرى أنّ النصّ « لا ينبغي أن يحدد بمفهوم الجملة، ولا بمفهوم الفقرة التي هي وحدة كبرى لمجموعة من الجمل، فقد يتصادف أن تكون جملة واحدة من الكلام نصا قائما بذاته مستقلا بنفسه، وذلك ممكن الحدوث في التقاليد الدينية كالأمثال الشعبية والألغاز والحكم السائرة

والأحاديث النبوية التي تجري مجرى الحكام وهلم جرا»<sup>16</sup> كما يعرفه أيضا بأنه: «عالم ضخم متشعب متشابك معقد، ورسالته مبدعة تنتهي لدى الفراغ من تدبيجه، فهو لا يرافقه إلا لحظة المخاض، أو لحظة الصفر كما يطلق عليها رولان بارت»<sup>17</sup>

المتأمل للتعريف الذي قدّمه مرتاض للنص، ومن خلال مقارنته بمختلف التعاريف التي أصابنا بعضها، نجد أنه أحسن في تعريفه ووضع مصطلح "عالم" كون أن كتب لسانيات النص تضع المصطلح القريب منه والمتمثل في "عالم النص".

3. مفهوم الخطاب:

1.3 في المعاجم العربية:

أ/ الخطاب لغة:

الخطاب بالمعجم العربية، وردت في المعجم الوسيط (خاطبه) مخاطبة وخطابا: أي كالمه وحادثه، وخاطبه: وجه إليه كلاما، والخطاب الكلام، وفي القرآن الكريم وردت اللفظة في قوله تعالى: ﴿وَعَزَّيْ فِي الْخِطَابِ﴾<sup>18</sup>.

في الكافي لمحمد الباقر، الخطاب: "مصدر خاطب: المواجهة بالكلام، ويقابلها الجواب - الرسالة. والخطابة مصدر خطب: عمل الخطيب وحرفته. والخُطْبُ: مصدر خَطَبَ: الحال والشأن. " قال تعالى: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾<sup>19</sup>

- الأمر الشديد يكثر فيه التخاطب، وغلب استعماله للأمر العظيم المكروه. (ج) خطوب. الخطبة: مصدر خَطَبَ: ما يخطب به من الكلام"<sup>20</sup>.

وفي معجم الكامل للمصطلحات العربية، "الخطاب بمعنى، الرسالة Letter، نص مكتوب ينقل من مرسل إلى مرسل إليه، يتضمن عادة أنباء لا تخص سواهما، ثم انتقل مفهوم الرسالة من مجرد كتابات شخصية إلى جنس أدبي قريب من المقال في الآداب الغربية- سواء أكتب نظماً أو نثراً - أو من المقامة في الأدب العربي"<sup>21</sup>.  
2.3 في المعاجم الأجنبية:

الخطاب " مصطلح ألسني حديث يعني في الفرنسية Discours، وفي الإنجليزية Discourse، ويعني كل ما يتعلق بمصادر الأفعال، خاطب، حادث، حاضر، ألقى محاضرة، وتحدث إلى فلان"<sup>22</sup>. وفي معجم أوكسفورد الموجز للغة الإنجليزية، يعرف الخطاب بأنه:

- "عملية الفهم المنطلقة من المقدمة حتى النتيجة اللاحقة.

- الاتصال عبر الكلام أو المحادثة، القدرة على المناقشة.

- الاتصال العادي، المحادثة.

- الكتابة المطولة عن أي موضوع.

- النقاش المنطوق أو المكتوب، الإخبار.

- المخاطب هو الذي يخاطب، المخاطب هو الذي يفكر.
- عملية أو قدرة أو مقدرة التفكير على التوالي منطقياً، عملية الانتقال من حكم لأخر بتتابع منطقي، ملكة التفكير<sup>23</sup>.

وفي معجم المصطلحات الأدبية الحديثة لـ (محمد عناني): يطلق "الخطاب" على عملية استخدام اللغة Language in use لا تلك اللغة التي تستخدم في إطار نظام يحكمه التجريد. لا تقف مفاهيم الخطاب في هذا الإطار بل تتعدى ذلك إلى مجموعة من الدلالات الأخرى على سبيل المثال لا الحصر فقد ذهب مايكل ستابز Stubbs في كتابه "تحليل الخطاب" إلى إبراز بعض التعليقات خصت استعمال المصطلحين "النص الخطاب" Text and discourse يقول: إن الخطاب كثيراً ما يوحي بأنه أطول وبأنه قد يتضمن أو لا يتضمن التفاعل. يذهب جيرالد برنس Gerard brins إلى القول في كتابه "معجم علم السرد إلى أن هنالك معنيين مختلفين للخطاب في إطار نظرية السرد: الأول يخص المستوى التعبيري للرواية لا مستوى المحتوى، والثاني يتعلق بعملية التمييز بين الخطاب والقصة Story (وبنفسه Benveniste يستعمل الخطاب و histoire في كتابه بالفرنسية)، لأن الخطاب كما يقول ستابز يوحي بعلاقة بين "حالة أو حادثة وبين الموقف Situation الذي يوحي فيه لغوياً بهذه الحالة State أو الحادثة Event أي إن التعريف هنا يستند إلى التفرقة بين الخبر والإخبار به، أو بين الواقعة والإبلاغ عنها، مما يماثل الفرق بين enonciation و enonce. ويفضل بعض كتاب الإنجليزية الاحتفاظ بالصورة الفرنسية للكلمة (أي دون حرف الـ (e) الأخير) عند استخدام الخطاب بالمعنى الذي استخدمه فيه بنفيسست<sup>24</sup>.

أما الخطاب في التعريف الاصطلاحي، كما ورد في بعض الكتب النقدية. فقد افترق بحسب

الاتجاهات والمرجعيات المتباينة، التي أخلط بعض منظريها بين مصطلح خطاب و كلام بالمفهوم الذي جاء به فرديناند دي سوسير<sup>25</sup>.

يذهب دي بوجراند إلى أن هنالك علاقة قوية بين الخطاب والنص، فالخطاب هو عبارة عن نصوص مترابطة من صور الاستعمال النصي، يمكن أن الرجوع إليه في وقت لاحق، وإذا كان عالم النص هو الموازي المعرفي للمعلومات المنقولة والمنشطة بعد الاقتران في الذاكرة من خلال استعمال النص فإن عالم الخطاب هو جملة أحداث الخطاب ذات العلاقات المشتركة في جماعة لغوية أو مجتمع ما ... أو جملة الهموم المعرفية التي جرى التعبير عنها في إطار ما<sup>26</sup>.

4- مفهوم النص من خلال جملة من المفاهيم

1.4 مفهوم النص من مفهوم الكلام

الرؤية التي سيطرت على كتب قدمائنا، لم تتعد تلك النظرة التي ارتبطت بمقتضيات الأحوال والسياقات، حيث اتجهت ميزات الكلام إلى وجهات مختلفة ظهرت بشكل واضح على مستوى الاختلاف المبدئي الذي شهدته معظم المذاهب النحوية، التي لم تكن نتائج بحثها واحدة، إنَّ إقران الكلام بالسياق، يستدعي التوجُّه إلى تشكيل نص يحمل في مضامينه معاني جزئية، تتجاذب فيما بينها من أجل رفع الغموض الذي ينتظره المتلقي، فميزات الكلام التي استخلصها أهل الدراية باللسان العربي، من منطلق اللفظ والجمل والنصوص المؤلفة، تحمَّلت تلك التنوعات غير المستقرة بالنظر لما شدَّ التفكير اللغوي من زخات أصابها التأويل واعتماد المذهبية في كثير من الأحيان .

لقد تنبه الإمام الباقراني إلى ذلك حيث اعتمد رؤية يخدم فيها الكلام النص، على سبيل تنوع المعارف وعدم استقرارها لما تفرضه من تغيير بتغيير السياقات سواء منها الخارجية المتعلقة بالكلام المنطوق والداخلية المتصلة بالنص المنقول، كذلك فلعنصر الزمن والمكان قوة لا يستهان بها في توجيه الأفهام نحو قراءة المفاهيم المقصودة، والتي يعتبر الكلام مدار قيادتها إلى بعث نص يتَّصف بمعياري السبك والحبك، هنالك تمثل اللغة لغاية واحدة، تتمثل في بناء نص محمل برسائل تنقل مقاصد المتلقي للمتلقين<sup>27</sup>

أما النظرة الثانية التي يستخلص منها: أنَّ مفهوم النص من مفهوم الكلام، فقد لمست بكلّ جدية فيما ذهب إليه صاحب دلائل الإعجاز، فتعليق الألفاظ بعضها بعضا عن طريق تلك الخدمة الجليلة التي يقدمها النحو، والتي تربط المؤلف الكلي بعلامة السياق، التي تعتبر المسار المهدي للنص، إن ملازمة الكلام لخدمة الجزئيات المتضمنة في النصوص، تجعل منه قوة هادفة تؤدي الرسالة المدعاة بين طرفي الخطاب مكتوبا أو منطوقا يقول عبد القاهر الجرجاني: « والكلام في هو تعلق الألفاظ، بعضها ببعض عن طريق العلاقات النحوية، وأن هذه العلاقات النحوية هي التي تسلك الكل في سياق. وأن النحو موجود في منظوم كلام العرب ومنثوره، والعلم به مشترك لدى العام والخاص»<sup>28</sup>.

2. ارتباط مفهوم النص بمفهوم الرسالة التبليغية

لا يمكن أن تنعقد العملية التواصلية دون أن تتوفر علاقة الاتصال بين أطراف الخطاب، الذي يعلن المتخاطبون فيه نية الإعلان عن وحدة متكاملة بشأن الأداء المسترعي للمعنى سواء الظاهر أو الخفي، بغية تحقيق المقصدية ودوام الاتصال برفع جميع أنواع اللبس بالرغم من بروز الإرهاصات الأولى في مجال اللغة، كنظام حيوي ذو أثر فعال في تماسك الأحداث الكونية وتأزرها الفذ، المحكوم بدلالات التعاطي بين المنشأ والمنشآت، فإنَّ ما توصل إليه قدمائنا لم يرق إلى التنظير، لكون أنَّ طبيعة العلاقات بدورها انحصرت في نطاق لا يعدو أن يتخطى النظرة الخطئية، لقياس كل التصرفات اللسانية المنتجة لتغطية الأحداث المختلفة، كما أنَّ تحديات فلسفة اللغة، تحكمت فيها المعايير التي ألّفت الجملة بكلَّ غاياتها التواصلية، والتراكيب بتأليفها الخطابية البلاغية، التي تقابلت تشاكلاتها المختلفة، لإبراز عناصر الحوار التحتية والفوقية المقصودة دون عناء.

كلّ هذه التصرفات منشأها الربط بين النظام الحرفي للغة وبين نظامها النحوي، الشيء الذي لمسناه بجدية في كتب قدمائنا، حيث أنّ اللغة عبارة عن نظام يشتمل على نوعين من الوحدات : الحروف والكلمات<sup>(29)</sup>.

نشير أيضا إلى أنّ المنطلقات الأولى، التي اعتمدها علماء اللغة تركّزت أساسا على الصوت، باعتباره الأداة الفيزيائية المركزية، لتحصيل الفعل الكلامي المنعقد بين المرسل والمرسل إليه، فبغيا هذه الوسيلة لا نستطيع تحديد توجّه النص، لأنّه بفقدان بلاغة الكلمة، وتركيز أصلها لا يمكن بلوغ المراد إلاّ بجرياتها في الأسلوب المؤتلف من جمل تساند بعضها البعض، وهذا ما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني وأسماه بالنظم<sup>(30)</sup>.

نضيف أنّ نظام اللغة المطرد، تتحكّم فيه وسائل متنوّعة، تنطلق من الدّات الفاعلة في حدّ ذاتها، ومن الواقع باعتباره علاقة تناظرية، لا تتحقّق جملها ووحداتها الدلالية دون تزاوجها، أي بين منشأ اللغة وتلك الظواهر غير المحصورة المتعامل معها .

إنّ تجلّيات فاعلية المصطلحات اللغوية المنبعثة سواء من خلال التآليف النحوية أو البلاغية وكذلك في التفسير والأصول، تبرز القوة الذهنية والإدراك العميق لخصوصيات اللغة وكيفيات تعامل القدامى مع مختلف ظواهرها وأقيستها الصرفية المحكية وغير المحكية، فالظاهر على أنّ مختلف الدراسات القديمة التي تعاملت مع النصوص -بحسب مدارك ومذاهب أصحابها -صبّت جميعها في شقّ واحد، هدفه تحقيق البحث في مختلف الأبنية المتباينة، المنضوية في إطار التمكّن من الوظائف النّصية المختلفة في تركيباتها وأداءاتها وتأثيراتها.

كذلك فالبلاغة العربية ركّزت على دراسة الجماليات والاستدلالات المستنبطة من النصوص بغية الإقناع والإمتاع، كان ذلك باستخدام آليات مختلفة، تتحكّم في ارتباط وتماسك النص، المؤدي في إطار مستقيم إلى روح التواصل والتبليغ هذه الآليات، يتحكّم فيها النحو بالنظر إلى التقلّبات المختلفة الطارئة على إحداثيات الجمل المؤلفة بدورها للنص، فكيف يستوي خطاب يصل أثره إلى المتلقي دون أن تنطبع التركيبة اللغوية بالصحة في النطق والخطّ؟

أيضا فإنّ ما كشفت عنه الإسهامات التي قام بها المفسرون لكتاب الله أبانت عن كثير من خبايا الدلالات النّصية المبلّغة، وبخاصة ما أطلق عليه كشف المناسبة بين الآيات والسور، هذه الإشارات تأسست على شاكلتها رؤية وقاعدة عامة، كانت الجملة مصدرها النمطي في مختلف التعاملات البلاغية والنحوية، التي تسعى إلى ربط الاتصال بين البشر في إطار تصوّر هادف، تتحكّم فيه ظروف الخطاب المحيطة وغير المحيطة بين المتواصلين.

إنَّ التَّجَلِّيَّ الأوَّلِيَّ لِنَحْوِ النَّصِّ، الذي يعنى بالوصف الكلِّي للغة<sup>(31)</sup> الموضوع الذي نحن بصدد محاولة استدراكه من خلال قدمائنا-، تنوع ذكر بعض معايير لدى الجاحظ من خلال معالجته لظواهر بلاغية ونحوية كثيرة، بالنظر لما جاء به فيما يسمّى بالحبك والسبك، وكذا الوصل والفصل، فإنّه لا يمكن القول بغير "تجذّر وأقدمية" هذه العلامات النصّية عند العرب.

#### 3.4- التجاذب المفهومي بين النص والخطاب

إن العلاقة التي تربط النص بالخطاب أثارت كثيرا من التساؤلات بالنظر لتقارب مفهوم المصطلحين، بل هناك من يقول بترادفهما، يذهب روبرت دي بوجراندي مبينا الركائز التي على أساسها تلتبس هذه العلاقة، فالخطاب في تصوره مجموعة من النصوص تربطها علاقات متنوعة تشترك في مضامين التي بدورها تخدم القصد المراد الذي يتجسد في وقت لاحق، أيضا فعالم النص لديه هو عالم موازي للمعلومات المنقولة والمنشطة بعد أن تمر بحركية النشاط القبلي في الذاكرة، والتي تتوجه إلى السامعين في إطار خطاب معين تتحكم فيه جماعة لغوية أو مجتمع ما، دون تخطي الأعراف والقيود المتفق عليها<sup>32</sup>

#### 4.4؟ مفهوم النص من مفهوم البيان بين الشافعي والجاحظ

لقد سبق الإمام الشافعي بدراسات تناولت بكل جدية موضع البيان، غير أنه انفرد عنهم بنظرته الثاقبة وذلك لتفوقه الباهت في مجال اللغة و درايته بحيثياتها وعلومها، فرغم انشغاله ببحث المواضيع الفقهية التي تتجاوز بحث موضوع البيان الذي اعتبر لديه جزئية من جزئيات البحث، لقد قام الإمام باستنباط الأحكام عن طريق استقراء المضامين، مما يعني أنه أشار إلى كفاءات تحليل الخطابات يعرف الشافعي البيان بقوله: البيان اسم جامع لمعان مجتمعة الأصول متشعبة الفروع فأقل ما في تلك المعاني المجتمعة المتشعبة، أنها بيان لمن خوطب بها مما نزل القرآن، بلسانه متقاربة الاستواء، عنده وإن كان بعضها أشد تأكيدا لبيان من بعض مختلفة عند من يجهل لسان العرب<sup>33</sup>

لقد انتقلت لفظة بيان من خلال بنائها المعجمي المتحملة لمعنى مصدرها إلى مستوى التعبير المفهومي، الذي ذهب الإمام إلى الحديث عنه على مستوى تشعب مضامينه وتفرعها بحسب السياق الخطابي، أيضا إبقاء الأصل، لأنه تابع لضوابط تتحكم فيه بحسب منشور الخطاب سواء أكان الخطاب محمول على النهي أو الإيجاب، فالمتلقي في نظره لا بد أن يكون على دراية بما يلقيه صاحب الرسالة، كما أن لعنصر القابلية دور أساسي في تفكيك أغاز الرسالة، لا يتأتى ذلك بدون تبليغ رسالة مفهومة بين طرفي الخطاب، لقد استثمر الإمام الشافعي أساليب التعبير وطرائقه في اللغة العربية لدراسة مفهوم البيان في القرآن الكريم ووضع قوانينه وتفسيره وتحديد مستوياته ودرجاته<sup>34</sup>

إن النص القرآني تحدى العرب لما امتلكوا من قدرات خارقة في التأليف وحسن صياغة التعابير ونسجها وكذا لفطرتهم على تصريف القول وتوطين المعاني، يذهب الإمام إلى « أن العرب تبتدئ كلامها من الشيء يبين أول لفظها فيه عن آخره وتبتدئ الشيء يبين آخر لفظها منه عن أوله، وتكلم الشيء بالشيء تعرفه بالمعنى دون الإيضاح باللفظ، كما تعرف الإشارة ثم يكون هذا عندها من أعلى كلامها لانفراد أهل علمها به دون أهل جهالتها وتسمي الشيء الواحد بالأسماء الكثيرة وتسمي الواحد بالمعاني الكثيرة»<sup>35</sup>

هذا النص يعتبر الدليل على أن الإمام الشافعي، كان على وعي ودراية بما يدور في اللسان العربي من تداعيات في اتساع سنن العرب في كلامهم، الشيء الذي يقود إلى اتساع رقعة التحليل والتأويل الذي صدرت لهم كتباً تحت عنوانه "تأويل مختلف الحديث" مثلاً.

منطلق هذا أن العقل العربي بياني أكثر منه برهاني، وأن معجزة العرب تستظهر عن طريق البيان وليس البرهان، فالنص القرآني نص استلهم كل الدلالات التي أصابها العقل العربي بالتفسير والتأويل، لذلك شكل وحدة قوية نهت دلالتها إلى تلك الروح الخفية في أسراره الدلالية، التي ألفت ما يسمى بقوة الالتفاف وراء فكرة واحدة، تجسدت في وحدة انتظام النص القرآني، وتبيان معجزته، وإظهار قدرة الخالق في امتلاك صنعه.

نسجل هنا ميزتين ميزتا حديث الإمام عن البيان:

الميزة الأولى: فقد استعمل فيها مصطلحين أساسيين هما: الأصول و الفروع التي تتشعب عن، الأصول وبذلك لا يكون الاختلاف هو التعدد في الأصول؛ لأنها ثابتة وإنما يكون في الفروع ويكون التأويل تبعاً لذلك عمل لإثراء وتنوع وتجدد في القراءة بما يحقق عامل التوحيد.

الميزة الثانية: فتتعلق بأساليب التعبير في اللغة العربية إذ لا بد من معرفتها والتفطن لخواص تراكيبها لسن القواعد والقوانين الخاصة بتفسير الخطاب المؤسس لتلك الصول المعبر عنها.

إنهما ميزتان مرتبطتان أسس عليهما الشافعي لنظرية أصولية بيانية تهتم بتحديد أصول التفكير ومنطقاته وآلياته واهتماماً بدراسة أنواع الألفاظ والعبارات من حيث دلالتها على المعاني.<sup>36</sup>

لقد اتجه الجاحظ في تصوره للغة على أن مدار تفاعل شكلها و مضمونها يقترن بأربع بدعائم هي: الصوت، التقطيع، التأليف والفصاحة. لا تختلف وما توصلت إليه مختلف الدراسات اللسانية الحديثة.<sup>37</sup>

إنّ التآلف الذي عقده الجاحظ، بين الدعائم التي ذكرناها، بدا واضحاً من خلال ربطه بين الصوت، كظاهرة فيزيائية، إذ تمر الكلمة عبر مسار هوائي لتصل الأسماع مؤدية رسالة تواصلية وأيضاً فتقطع الكلمات يسهم بشكل جدي في معرفة المعاني وتحديد شريفها من عمها، حيث أورد لذلك أمثلة كثيرة، تمحورت حول الكلمات المتقطعة وأدائها المحورية في عمليات التبليغ، لقد توصل من خلال العيوب الصوتية، كاللثغة إلى دراسة التقطيع الوظيفي مثال: فلا لثغ المتكلم عندما يقطع كلمة مضر، بقوله مضي بإخراج الراء من مخرج الياء، لنقصان في آلة النطق، وعجز في أداة الصوت. فالسامع الذي يسمع مضي، يتفطن للعاهة ويصحح

الخطأ الصوتي ويفهم كلامه باعتماده التقطيع المؤلف<sup>38</sup> أما دعامتا التأليف والفصاحة فقد حقق من خلالهما المزية اللسانية المنعقدة من خلال النصوص المختلفة، حيث بحث مسألة انسجام النصوص عن طريق استعماله لمجموعة من الوسائل البلاغية والنحوية، وهو ما أسماه بالمطابقة الفنية والمطابقة النحوية<sup>39</sup> لقد جاء في البيان والتبيين (أنّ الشعر ما رأيتَه متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم أنّه أفرغ إفرغا واحدا، وسبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان<sup>40</sup>، إنّ لظاهرة التنافر في التركيب النصي، أثرها القوي في إنشاء التلاحم المستقر في خطية النصوص سواء الشعرية أو النثرية؛ لأنّه يتباعد الكلمات سواء من ناحية المعنى أو عيب الاستعمال، يفقد النصّ حركتيه المؤدية إلى مقصدية المتواصلين، كما أنّه يتنافر الحروف من حيث تباعد مخارجها وتباينها، فإنّها تشقّ على الألسن، ممّا لا يخدم التواصل (هذا في اقتران الألفاظ، أما في اقتران الحروف؛ فإنّ الجيم لا تقارن الظاء ولا الطاء ولا العين بتقديم ولا بتأخير، والزاي لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا بتأخير)<sup>41</sup>.

هذا الذي ذهب المحدثين منهم جاكبسون بأنّ تلاحم الأجزاء، المكوّنة للنصّ ضرورة ملحة لأداء الرسالة التبليغية (برقية، رسالة ذات رموز (بين المرسل والمرسل إليه(42)، انطلاقا من الصوت كوحدة وظيفية صغرى، ووصولاً إلى تحقيق الفعل وانجازه.

ذهب الجاحظ أبعد من ذلك، حيث فرض ضرورة مقابلة المضمون ومجموعة العناصر المكوّنة للإبداع الشعري؛ لأنّ هذه الأخيرة لا تقف عند اللفظ أي الكلمات فقط، كما يضيف أيضا أنّ السبك والصيغة، يجعلان التركيب اللغوي بكلّ علاقاته النحوية المتفرّعة يؤثر في توجيه خصائص في الدلالة(43).  
مما يفسّر أنّ القدرة الإبداعية تتحكّم في توجيه التأليف من ناحية الإيجاز والاستطراد المبني على مدارات ممارسة الميزان الصرفي والتأثير النحوي والأسلوب البلاغي.

كلّ هذه الملامح المتناثرة في طيّات كتب قدمائنا، لم تكن بشكل اعتباطي، إنّما أملتها الضرورة العلمية والاجتماعية، وسياقات الحال، لتتجسّد فيها النصوص البارعة، فكانت الحقل المعرفي الذي تحقّق فيه بحث المعايير النصّية، التي جمعها الغربيون في إطار تنظيري، أطلقوا عليه نظرية النصّ، أو نحو النصّ.

فأهمّ شيء توصّل إليه الجاحظ، لم يكن وليد نقل ومحاكاة عن أمم أخرى، بل مصدره التدبّر العقلي والتعبير عن الذات العربية، وعراققتها في التعامل مع مختلف العلوم، هذه التأمّلات جعلت النصّ من أبرز الظواهر، والمرتكزات التي اعتمدت لحلّ كلّ التعقيدات التواصلية، كان ذلك باعتماد البلاغة والنحو كأساسين لحلّ مقفلات الأساليب الخطابية المختلفة

5.4 مفهوم النصّ من مفهوم النظم عند الجرجاني

تعتبر البدايات الممتدة من سيبويه فالجاحظ، إلى القاضي الجرجاني، المرجعية العلمية لعبد القاهر الجرجاني، الذي نحن بصدد سرد آراءه النصية التي تعامل بها، لحلّ اللغز السائد آنذاك بخصوص التعامل مع كتاب الله، باعتبار تشعب الفرق والمذاهب، حيث أعطى مفهوماً جديداً للنحو في انتقاله من الجملة إلى التركيب من خلال نظرية النظم، التي تعتبر بحق منطلقاً خصبا جمعت فيه النظرات النصية، التي تبعثرت بحسب المرجعيات المتباينة، التي مثلت الإرهاصات الأولى لدى من سبقه، بخصوص التعامل مع النص كظاهرة حيوية، أنشأت حركية دائبة بين المتعاملين بمختلف أساليب الخطاب، دون نسيان ما أسهم به المفسرون للقرآن الكريم في ضبط بواعث الدلالات واستنطاق المضامين، هذه الظواهر اعتمدت في التفسير والتحليل على الضوابط النحوية بأبنيتها المتنوعة، فقد راعى أصحابها السياقات، مركزين على حال المرسل والمرسل إليه، يقول عبد القاهر «واعلم أنّ من الكلام ما أنت تعلم إذا تدبرته أن لم يحتاج واضعه إلى فكر وروية /حتى انتظم، بل ترى سبيله في ضمّ بعضه إلى بعض، سبيل من عمد إلى لال فخرطها في سلك، لا ينبغي أكثر من أن يمنعها التفرّق، وكمن نضد أشياء بعضها إلى بعض، لا يريد في نضده ذلك أن تحي له منه هيئة أو صورة، بل ليس إلا أن تكوّن مجموعة في رأي العين. ذلك إذا كان معنك، معنى لا تحتاج أن تصنع فيه شيئا غير أن تعطف لفظا على مثله» (44).

إنّ المادة الأساسية التي تتفق حولها كلّ العلوم، والتي تنبني عليها البحوث المختلفة هي "النصوص"، إذن فهي قاسم مشترك قائم بين كلّ الأفراد والجماعات، فبعد أن عرّجنا على بعض أعمال قدمائنا، وجدنا أنّ هناك تقاطعات كثيرة، في مجال التعامل مع النصوص والأدوات المستعملة في عمليات التحليل، القصد منها إبراز المضامين وتحديد رؤى أصحابها.

فأهم شيء توصل إليه هؤلاء على رأسهم الجاحظ، لم يكن وليد صدفة ولا نقل ومحاكاة عن أمم أخرى، بل مصدره التدبّر العقلي والتعبير عن الدّات العربية، وعراقمتها في التعامل مع مختلف العلوم، هذه التأمّلات جعلت النص من أبرز الظواهر، والمرتكزات التي اعتمدت لحلّ كلّ التعقيدات التواصلية، كان ذلك باعتماد البلاغة والنحو كأساسين لحلّ مقفلات الأساليب الخطابية المختلفة. كما كان للبحث النصي عند العرب، قدم السبق على يد عبد القاهر الجرجاني المتأثر بسابقه، هذه التحوّلات التي شاهدها الدراسات اللغوية، خلقت نوعا من التريّض والحيرة في التعامل مع مختلف الأساليب الحوارية والنقلية المتمثلة في النص، حيث بروز فكرة استبدال الجملة -بالنظر لمحدوديتها في أداء رسالة التواصل المنعقدة بين البشر- بالنص فتحت منافذ البحث اللساني على مصراعها لترتبط كلّ دراسة جادة بمنابعها النفسانية والسوسولوجية والفنية والإعلامية.

فالنص وحدة دلالية وليست الجمل إلا أدوات، يتحقّق بها النص، كلّ هذه النقلات الهادفة إلى تركيز النصّ قطبا أساسيا في البحث اللساني، لقيت العناية الكافية من التقبّل والاستحسان؛ لأنّ الدرس اللغوي كباقي العلوم الأخرى تأثر بظاهرة الانتقال عبر مسارات تأثير الزمن والسياس العام.

5. مفهوم النصّ عند بعض المفسرين

النص القرآني يعتمد في رأي بعض المفسرين التأويل؛ لأنّ المفسرين يأولونه رغم تفريقهم بين التفسير والتأويل، يذهب نصر حامد أبو زيد إلى أنّ التفريق بين المصطلحين، يعطي شأنًا للتفسير على أساس من موضوعية الأول وذاتية الثاني يقول: «ولا يبالغ الباحث إذا ذهب إلى أنّ تفسير الصحابة أنفسهم - خاصة ابن عباس الذي نظر إليه على أنه ترجمان القرآن - لا يتجاوز إطار التأويل»<sup>45</sup>

لقد ميّز المفسّرون بين المصطلحين حسب الوظيفة المفهومية لكلّ منهما؛ لأنّ المفهوم المنعقد مضمونياً في مختلف المصطلحات، لا يمكن فرزه إلّا في إطار الزمن اللغوي و كذا ارتباطه بمجموعة من المعايير التي تجسّد حقيقة المتواصلين اجتماعياً ؛ أيضاً الغاية من ذلك توفير خاصية التناغم وإجلاء ما غمض على المتراسلين في الخطاب ؛ يكون ذلك بترسيم علّة الاستقرار التي تثير في السامع حجة الربط بين السابق واللاحق من الكلام المسموع، ما ذهب إليه مفسرو كتاب الله لم يخرج عن إطار صرف الآيات إلى المعاني المترابطة الدالة على معاني تتوافق بالتتابع؛ لأنّ الأولى توجي إلى الثانية بالمضمون المختفي، توصيله يقول الإمام الزركشي: «التأويل صَرْفُ الآيَةِ إِلَى مَعْنَى مُوَافِقٍ لِمَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا، تَحْتَمِلُهُ الآيَةُ، غَيْرُ مُخَالَفٍ لِلكِتَابِ وَالسَّنَةِ مِنْ طَرِيقِ الاسْتِنْبَاطِ.»<sup>46</sup>

من هذا المنطلق فإنّ العلاقة المفهومية الموجودة بين النصّ والمفسّر ليست علاقة إخضاع من جانب المفسّر وعلاقة خضوع من جانب النصّ، والأحرى القول إنّها علاقة جدلية قائمة على التفاعل المتبادل<sup>47</sup> ومما يجب الانتباه إليه هو أنّ ألفاظ اللغة تصاب بالتطور على مستوى الحقل الدلالي، فكثير من الألفاظ كانت تغطي عند قدمائنا معانٍ معينة لكنّها تطوّرت فأصبحت تؤدّي إما معنى ثانٍ أو معنى مخالفاً تماماً، فكلمة إبل كانت تعني مجموعة من الإبل يربط بعضها مع بعض وتسير معاً، والآن أصبحت تعني الآلة الخاصة بالركوب ونقل البضائع، هذا الذي يوجّه إلى أنّ بعض ألفاظ اللسان ترتبط بعصرها «يقول الغزالي في سياق حديثه عن التفسير بالرأى : " لا بد من فهم القرآن من خلال معهود العرب في الخطاب، ومن دلالات الألفاظ كما كانت عند العرب»<sup>48</sup>

إنّ الكلمات والتراكيب اللغوية تتحوّل بمنظور البيئات الجديدة، فالسياق الاجتماعي له الدور الكبير في توطيد عرى الكلمات بتنقلاتها المختلفة عبر النصّ، يذهب حامد أبو نصر إلى أنّه إذا كان أصحاب نظرية النصّ العام يتصورون أنّهم يستطيعون العودة إلى النصّ في مجال تداوله الأصلي؛ فإنّ هذا مستحيل؛ لأنّ اللغة مثلها مثل العملة في تداولها لا تصاب بالتلف كالأوراق المالية، وتالياً فهي تقوم بتحوّلات لمعنى وتتجدّد<sup>49</sup> يذهب الإمام الشافعي إلى القول بخصوص النصّ: «هو المستغنى فيه بالتنزيل عن التأويل، وإنّما بأنّه " سلسلة من العلامات المنتظمة في نسق من العلاقات تنتج معنى كلياً حمل رسالة. وسواء كانت تلك العلامات علامات باللغة الطبيعية - الألفاظ - أم كانت علامات بلغات أخرى، فإنّ انتظام العلامات في نسق يحمل رسالة يجعل منها نصاً»<sup>50</sup>

فالنّص حسب ما ذهب إليه الإمام ينمّ على أنّه مجموعة من العلامات تتابع فيما بينها بقصد إيراد المعنى المقصود تبليغه عن طريق تواردها، وتناغم بعضها بعضاً، يحدث ذلك عن طريق التناسق الشديد بينها، من حيث تتابع مسارها في الجملة وكذا لشدة الرّبط الموجود بينها والحاصل عن طريق الأدوات. لقد حدّد بعض علماء الأصول الأدوات التي يتم بها تفسير النّص القرآني المتمثلة فيما ذكره الزركشي من أنّ «المفسّر لكي يكون مفسّراً يجب عليه معرفة علوم القرآن وعلوم اللغة والصرف والاشتقاق والنحو وعلم المعاني وعلم البيان وعلم البديع»<sup>51</sup>

في حين يرى نصر حامد أبو زيد أنّ التأويل يتجاوز هذه المعطيات ليجعل العقل أداة يتم بها تأويل النّصوص؛ لأنّ هذه العلوم تصبح غير قادرة على استنباط الدلالات العميقة منها، ينبه أيضاً إلى أنّ كثيراً من الأبعاد الدلالية العميقة تحتاج إلى التدبّر الذهني من أجل تفكيك غامضها، هذه الأبعاد من شأنها أن تستخدم التأويل بعد استنفاد كلّ الأدوات العلمية في بحث الدلالات البعيدة التي لم يتوصل إليها.<sup>52</sup> يتوجه إلى أنّ القرآن حديث نفسي كما جاء على لسان الأشاعرة وترجم إلى اللغة البشرية، حيث تجسّد فيما بعد في علامات ورموز قابلة للتأويل، ثم تصبح ألفاظه مثل الصوّر التي يراها الناظم صوّراً مادية في حاجة إلى اكتشاف المعنى الذي تحمله في كنفها، بهذه الطريقة تنتقل اللغة في مجال الدلالة إلى أن تكون رموزاً لحقائق متوازية مستكنة في عالم المعاني والأرواح.

إنّ القرآن الكريم في نظره نص بالمعنى الحديث، مادته اللغة، كما يتكوّن من علامات لغوية تخضع لنظام نصي، والعلامات لا تدلّ على شيء دون أن تلقى التأويل اللازم من القارئ الذي يحاور كلّ معطيات النّص حسب ثقافته.<sup>53</sup>

#### خاتمة:

بعد أن وفرنا بعض المفاهيم لغرض توضيح الفروق الموجودة بين مصطلحي النّص والخطاب، حاولنا أن نجيب عن المراد من الأشكال والذي ينحصر في فك الغموض الذي سيطر فترة طويلة بإلحاق تارة النّص للخطاب وتارة أخرى اعتبار الخطاب هو النّص، حيث أنّه بعد المعالجة لما ورد من مقولات متباينة توصلنا إلى: النّص عند قدمائنا العرب كان موصولاً بكلّ حمل جملي، تتقاطع فيه كل أنواع الخطابات لتنتهي في آخر المطاف إلى تحصيل ما يجعل المخبر على يقين بما كان يجول في خاطر المخبر، كما أنّه أيضاً بالرجوع لما ورد عند مفسرينا وكذا البلاغيين والنقاد، يظهر أنّه ارتبط أشدّ الارتباط بالخطاب، ممّا لمحنه بخصوص التعبير عن القرآن بالنص القرآني وكذلك الخطاب الرباني، الشيء الذي يفضي إلى أنّهما يهدفان إلى مبتغى واحد وهو بلوغ مقاصد التواصل وتحقيق الفعل التواصل.

أما عند الغربيين فقد اتضح جلياً من خلال المفاهيم الكثيرة المتباينة، أنّ الخطاب أخذ لديهم منحى تصاعدي من حيث الخوض في مسألة فك شفرات التّواصل، فقد أولوه عناية ملفتة ولاسيما بعد الالتفاتة

المعبرة التي جاء بها دي سوسير بخصوص اعتماد المنطوق من الموضوعات التي لها شأنها في حقل التواصل، فقد اعتمده فكانت معظم العناوين المؤلفة في هذا الحقل، تصب مثلا في تحليل الخطاب وليس النص، مهما يكن فقد عادوا فيما بعد إلى ما ذهب إليه العرب حيث، سايروا المصطلحين بروح بحث جديدة، افضت إلى ظهور كتاب النص والخطاب والاجراء عند دي بوجراند وكذا النص والسياق عند فان دايك وما دون ذلك من المؤلفات الجديدة.

إنَّ الضرورة الحتمية لمشكلة الألفة الموجودة بين المصطلحين، أكدت في كثير من التدخلات، فما كان لنا في هذا السياق إلا أن نؤكد العلاقات الموجودة بينهما، فلا حجة لنا في هذا الحقل؛ لأنَّه مهما حاولنا يبقى المنطوق ذاك الكائن المتحول إلى مكتوب؛ كما أنَّ المكتوب كذلك يتحول إلى منطوق، فالعلاقة بينهما طردية، ومقاصد المتواصلين بهما واحدة وهي بلوغ المرام.

الهوامش:

- 1 ينظر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، المجلد السابع، 1994، ص(97،96) مادة "نص".
- 2 ينظر: الرمخشي، أساس البلاغة، دار بيروت-بيروت 1984، ص (635، 636).
- 3 Robert micro, Alain Roy et autres, dictionnaire le robert, Paris-Montreal Canada, 2eme Edition, 1998, p 1321.
- 4 الأزهر زناد، نسيج النص، ص 6.
- 5 جوليا كريستيفا، علم النص، تر: فريد الزاهي، دار توبقال، الدار البيضاء، ط 1997، 2، ص: 160.
- 6 أحمد عفيفي، نحو النص، إتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط 2001، 1، ص: 28.
- 7 المرجع نفسه، ص: 22.
- 8 سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، ص: 108.
- 9 الجاحظ، كتاب الحيوان، ج 1، ص 131.
- 10 ابن طباطبا، عيار الشعر، تحقيق د. محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط 3، ص 19.
- 11 عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تعليق السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، 1982، ص 316.
- 12 المصدر نفسه ص 373.
- 13 المصدر نفسه، ص (316، 373، 312).
- 14 المركز الثقافي العربي، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، بيروت، الدار البيضاء، ط 2000، 2، ص 35.
- 15 نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، الجزء 1، ص 69.
- 16 عبد الملك مرتاض، في نظرية النص الأدبي، المجاهد الأسبوع الجزائرية، عدد 1424، ص 57. نقلا عن رابطة أدباء الشام: www.odabasham.net
- 17 عبد الملك مرتاض، النص الأدبي من أين وإلى أين؟ ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 42.
- 18 مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، القاهرة، مطبعة مصر، ج 1، 1960، مادة (خطب)، ص 23.
- 19 سورة يس، الآية ....
- 20 محمد باشا، الكافي معجم عربي حديث، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 1992، ص 414.
- 21 مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص 90.
- 22 إلياس أنطوان إلياس، قاموس إلياس العصري، دار الجليل، بيروت، 1972، ص 191.
- 23 ينظر: The Shorter Oxford English Dictionary on Historical Principles, p563.
- 24 جيرالد برنس، معجم علم السرد، 1988، ص 21.
- 25 منذر عياشي، مقالات في الأسلوبية، ص 241.
- 26 روبرت دي بوغراند، النص والخطاب الإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، ط 1، 1998، ص 6.
- 27 ينظر: منذر عياشي، مقالات في الأسلوبية، ص 208-209.

- 28 عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص-ق-ث.
- 29 ينظر: محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ، من خلال البيان و التبيين، ديوان المطبوعات الجامعية-الجزائر-1983، ص121.
- 30 ينظر: محمد بركات حمدي أبو على، الأصول الأدبية في كتاب البيان و التبيين، مكتبة الرسالة الحديثة، الأردن-عمان-1979، ص43.
- 31 ينظر: عبد الجليل مرتاض، في رحاب اللغة العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، 2007، ص148.
- 32 روبرت دي بوجراند، النص و الخطاب الإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، ط1، 1998، ص6.
- 33 محمد بن إدريس الشافعي، الرسالة، تح، أحمد شاكر، القاهرة، الأبياري الحلبي، 1940، ص20.
- 34 ينظر: محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، دار الطليعة، بيروت، 1984، الجزء الأول، ص5.
- 35 الامام الشافعي، الرسالة الشافعية، ص52، نقلًا عن محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط5، 1996، ص24.
- 36 ينظر: محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، ص24.
- 37 ينظر: محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية و البلاغية عند الجاحظ من خلال البيان و التبيين، ص109.
- 38 ينظر: نفسه، ص112.
- 39 ينظر: المرجع السابق، ص165.
- 40 الجاحظ، البيان و التبيين، ص89.
- 41 المصدر نفسه، ص91.
- 42 Essai de linguistique generale; jakobson; les edition de minuit paris; 1963; P62
- 43 فايز الداية، علم الدلالة العربي، النظرية و التطبيق، دراسة تاريخية، تأصيلية، نقدية، ديوان المطبوعات الجامعية-الجزائر-ص34.
- 44 عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تعليق محمد محمود شاكر، شركة القدس للنشر و الإصدار، ط3، 1992، ص(96،97).
- 45 نصر حامد أبو زيد، فلسفة التأويل- دراسة في تأويل القرآن عند محي الدين بن عربي، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء - ط5 - ص: 12.
- 46 الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم- دار الفكر للنشر و الطباعة و التوزيع، الجزء الثاني، ط3، 1980، ص150.
- 47 المرجع السابق، ص5.
- 48 محمد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن، دار نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع، 2002، ص199.
- 49 نصر حامد أبو زيد، القرآن بلغة الرسول، - http://www.Alaraby.Com/articles/893/04011811-893pnp01.htm
- 50 نصر حامد أبو زيد، النص و السلطة و الحقيقة، المركز الثقافي العربي-الدار البيضاء-ط4، 2000، ص160.
- 51 الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص173، 174.
- 52 ينظر: نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، ص30، 31، 32.
- 53 ينظر: نفسه، ص271.